مقالات

مقدمة فى تاريخ "جاك لاكان"

د. السيد البدوي صديق
استشارى العلاج النفسي

مقدمة:

إن الكتابة عن حياة جاك لاكان تعد عملا صعبا غير يسير؛ فهي تستثير رحلة عناء من الإبحار الصعب: الإبحار بين أمواج صاخبة في تلاطمها ورياح عاتية في شدتها، وتقلبات جوية بين برودة قارصة قاسية أحيانا وحرارة شديدة لاسعة أحيانا أخرى.

لقد كان التعامل مع كتابات جاك لاكان ومفاهيمه وأفكاره أشبه ما يكون بالتعامل مع اللغز ومع المشكلة.

مع اللغز حيث الأسلوب المعقد: فلقد كان لاكان يعتبر أن الأسلوب هو الإنسان أو الرجل ... على اعتبار أن الإنسان، أولا وقبل أي شيء، يمتاز بنطقه، بالتعابير اللغوية التي يتعامل بها؛ فهي المعبرة عنه. واختياره للمفردات والتعابير والكلمات والأسماء إنما تتحكم بها بنية نفسية ترتكز في الأساس على الأسلوب نفسه. لقد كان جاك لاكان ولعا بالصعوبة في الإسلوب، وخصوصا إسلوبه الباروكي؛ حيث التميز بالتعقيد والصور الغامضة الغريبة ودقة الزخرفة وغرابتها أحيانا. إن إسلوب لاكان الأدبي كان يشكل عقبة، حيث تحفل كتاباته بالغموض وباللعب بالجرس الموسيقى الصوتي لترتيب الكلمات على نحو ليس من السهل دائما فك مغاليقه وحل فعاليته. لقد كانت أساليبه البيانية وصوره البلاغية كلها حليفة متحالفة مع النفي، مع نفى النفي، مع كل مصادر القواعد النحوية التي تصيغ ضربا من التأكيد وتتخذ موقفا في تزعمها: «سأخبر بالحقيقة، لا كل الحقيقة، فليس هناك من سبيل لقول الحقيقة كلها؛ إن قولها لهو مستحيل حرفيا: الكلمات تفشل».

أما المشكلة فكانت تتمثل في تحديد نقطة البداية. فكما قال العديد من المعلقين على أعمال جاك لاكان:» إن من يقرأ أعماله، يجد نفسه في مواجهة صعوبة تحديد من أين يمكن للمرء أن يبدأ، وذلك جزئيا بسبب المدى الفسيح من الأصداء الذي يمكن للمرء أن يجده. لقد كانت هناك دوما صعوبة تكمن في الاستخدام الواسع لمصادر متباينة من النظم والمعارف العلمية. وأن من عليه أن يتصدى للقرب من أفكار هذا الرجل، عليه ألا يكون فحسب على معرفة بالتحليل النفسي وعلم النفس المرضى والطب النفسي، بل وأيضا بالأنثروبولوجيا واللغويات وعلم الرياضيات، ومن قبلهم الفلسفة. وبالتالي فإن من يريد فهم وتفسير لاكان لا يجب عليه أن يتعامل فحسب مع نصوص فرويد، بل عليه أن يمتد صوب نصوص يتم طرحها بعيدا عن تخوم النظرية التحليلية النفسية.

ومع اللغز والمشكلة كان على المرء أن يسير على أطراف أصابعه، كي ما يشق سبيله حيث الإتقان في الأسلوب جنبا إلى جنب مع التنافر؛ حيث الغياب المادي والحضور السيكولوجي؛ حيث النقصان والرغبة، وحيث اكتشاف الحقيقة في حركة الخطاب الدينامية؛ تلك الحقيقة المتخفية لا بين دوال الخطاب فحسب، وإنما أيضا بين السطور.

وإذا كان موضوع الأطروحة هو محاولة لطرح تفسير للقوة المحايثة للجنون والكامنة في قلب البنيانات المكونة للشرط الإنساني، فإنه ما إن وطأت الأقدام على الأرض حتى كان الإدراك أن مثل هذا المشروع فيه من الطموح ما يتجاوز تقريبا أمل النجاح. فالمرء يعلم يقينا أنه لن ينجح تماما في هذا الأمر وتلك المهمة. فهذا بعيد عن الكمال، الذي هو وحده لله. وما أسعى إليه هو أن الأمل ربما يفتح الباب أمام الحوار، وبفتح السبيل، ولو على نحو بسيط، لأولئك الذين يأتون ليكملوا المسيرة في وقت ما قد يكون ملائما، وبإمكانيات أفضل ليحققوا هذه المهمة. فلقد كان الإصرار والعزيمة هما القوة التي جعلت المرء يخطو حثيثا، يقرُب مما باستطاعته أن يستوعبه ويفر هاربا مما يصعب عليه الإمساك به ومغلق على الفهم؛ إلى الدرجة التي أصبح المرء فيها غير قادر على معرفة ما إذا كان في الأرض الحق لفكر هذا الرجل أما أنه في أرض زائفة تضلل القارئ في التفكير بأنه يعرف شيئا عنه.

وقبل أن نتكلم عن الأطروحة في محتواها، علينا أن نعرج سريعا على البداية، تلك البداية التي لا يمكن فصلها عن النهاية. ولقد كانت النهاية - البداية مع الانتهاء من أطروحة الماجستير، التي كان موضوعها: «دراسة كلينيكية للتخيلات في الاعصبة الطرحية»، والتي شرفت فيها بالتعلم والإشراف على يد رائد الكلينيكية وعميد الانتقائية العلاجية صلاح مخيمر الحاصل على دكتوراه الدولة من جامعة السربون والذي يحمل داخله وفى نفسه خبرة تدريبية لم تكتمل على يد جاك لاكان، إبان أن كان هناك عصر تنويري، حيث يذهب الرواد الأوائل إلى فرنسا ليتعلموا المعرفة الحق ويناضلوا من أجلها؛ مما يتجاوز المقام هنا عن الكلام في هذا.

وفى أثناء هذه الرحلة التعليمية مع الأستاذ والمعلم والمحلل النفسي صلاح مخيمر كان هناك الكثير مما يلقى على مسامعي، وأنا في معيته وصحبته على مدار اليوم ولثلاث سنوات أعايشه عالما عبقريا ومحللا نفسيا فريدا، يحفر بها فى لاشعوري وينقش، وكأننا في جلسات تحليل تدريبي يتجاوز الأريكة وفى معهد علمي يُعلم وفق أكثر المناهج علمية وصرامة. وفى أثناء هذه الرحلة كثيرا ما كان يتكلم عن جاك لاكان - وإن لم يكتب عنه أبدا مثلما كتب وترجم عن أستاذه لاجاش المشرف العلمي عليه. لقد نقش مخيمر فى لاشعوري حروفا عن هذا الرجل، عن جاك لاكان، الذي انشغل كما كان يقوم مخيمر: «بنمنميات الأمور وإثارة بعض المشكلات الجزئية المرتبطة بنظرية التحليل النفسي التي تمضي إلى صميم ماهية الإنسان والتحليل النفسي وفق منظور بنيوي فلسفى أنثروبولوجي، وذلك من أجل العمل على تأسيس التحليل النفسي باعتباره علما مهتما بالحداثة». لقد قام لاكان، بتحديث مشروع فرويد العلمي واكتشف مصادر المعرفة الإنسانية التي تتأتى من اللغة، تلك اللغة التي تضم أعماق الإنسان، لاشعوره وتاريخه الثقافي والاجتماعي ووسائل تعبيره المختلفة.

ومع رحيل مخيمر، الذي لم ولن يغيبه عن المسرح وعن حركة العلم فى عالمنا العربي بإسهاماته وطروحاته وتنظيراته، كانت المساعدة وكان العطاء وكان الحب وقبلهم كانت المعرفة الموسوعية، كان فرج أحمد فرج الذي هو وبحق فيلسوفا، قبل أن يكون عالما، في التحليل النفسي؛ حيث يمتلك ما يؤهله وبحق لأن يكون قائدا للحركة التحليلية النفسية في مصر بعد أن رحل عنها مصطفى زيور وصلاح مخيمر وهاجر منها مصطفى صفوان وأحمد فايق وسامى على و ... و ... فلقد كنت على تواصل معه إبان دراسة الماجستير وعلى يديه تلقيت كل المساعدة في التفسير الكلينيكي لاختبار التات (اختبار تفهم الموضوع) لدراسة الماجستير، مما كان يفتح الحوار والكلام عن جاك لاكان، حيث الوثبة التي قام بها لاكان، والتي ساعدت على المسير قدما على خطى فرويد بالدعوة للعودة الى فرويد وعلى نحو أكثر تقدما، حيث فصل التحليل النفسي عن الآلة البيولوجية التي كانت تشكل قاعدة للمفهوم السيكولوجي التحليلي النفسي للإنسان عند فرويد، والتي كانت لما تزل مرتبطة بهذا المفهوم على نحو أو آخر.

لقد كان فرج أحمد فرج الأكثر معرفة علمية بهذا الرجل والأكثر قدرة على متابعة أفكاره ومعرفة ما قد شكلته هذه الأفكار من وثبة كيفية في تناول الإنسان، حيث إشكالية تكوين الذات مرتهنة ببعدين أساسيين هما: رغبة الآخر واللغة. الرغبة، حيث الإنسان رغبة في رغبة؛ واللغة، التي هي الأولية لمفهوم الإنسان. فحتى يتسنى أن تكون إنسانا فإنه عليك أن تدخل اللغة وعالمها. فإذا كان الإنسان السوي هو الشخص الذي لديه القدرة

على أن يدخل عالم اللغة، فإن المريض العقلي تتم رؤيته على انه ضرب من الإخفاق والفشل في هذا الدخول.

ومن هنا كان الاهتمام بفكر هذا الرجل، جاك لاكان، وكان الحوار مع فرج أحمد فرج المعلم والأستاذ على موضوع هذه الأطروحة حوارا ممتدا، إذ كان يدرك، منذ البدء، صعوبة من يُقدم، ممن هم في بداية الطريق، على الدخول في فكر هذا الرجل ومفاهيمه... ولكنها المسئولية والريادة والرغبة في أن يتم إقحام سبيل المعرفة، برغم أشواكه، وأيضا الضرورة الموضوعية لمن يعتلى القمة في مدرسة التحليل النفسي بمصر، ويجلس على كرسي المسئولية في جامعة عين شمس، أن يفتح باب المعرفة الحديثة أمام الأبناء وأمام الجيل الجديد، كضرورة لابد منها وإن كانت محفوفة بالمخاطر. فلقد حمل فرج أحمد فرج على عاتقه مسئولية تعليم الجيل الجديد بأن التحليل النفسي كعلم في الإنسان، لن يقف عند اسم «فرويد» وأفكاره ولا يجب، وأنه لابد من متابعة حركة العلم التقدمية التي كان قد انطلق بها لاكان، الذي قد بدأ من حيث انتهى فرويد؛ لقد أعاد لاكان التفكير في مفاهيم التحليل النفسي في إطار معرفي أوسع، أتاحته له جملة التقدمات الحادثة في العلوم الإنسانية الأخرى: من بنيوية وانثروبولوجيا ولغويات وفلسفة. لقد استطاع لاكان، كما يقول فرج أحمد فرج، أن ينجز ما بدأه فرويد بتطهير التحليل من الرواسب البيولوجية والفيزيولوجية، التي كانت مسيطرة في ذاك الوقت؛ ومن ثم نقله إلى حقل الفكر الأبستمولوجيا ومجال البحث الحق في الإنسان، القائم على اللغة والكلام.

وكان التسجيل لأطروحة الدكتوراه في العام ١٩٩٠م هو التسجيل البكر في أعمال جاك لاكان، تحت إشراف فرج أحمد فرج، والذي سوف تتلوه بعد ذلك مجموعة من التشكيلات التباينية التي تحاول تطويق فكر هذا العالم من خلال تناول أفكاره في علم النفس المرضى وأفكاره في النقد الأدبي، ثم في الإدمان والانحرافات، وأخيرا في مجال الأساطير؛ لتشكل في مجملها مجموعة عمل تتناغم مع بعضها البعض لتحاول أن تواكب التقدم المعرفي فى حركة التحليل النفسي.

وكانت البداية في رحلة الإبحار، حيث محاولة التعرف على من يكون لاكان ؟... ذلك الاسم الذي كان يحتل مكانة تجعل الناس تشغف بالحديث عنه، حيث لا يستطيع أحد أن يقرب من حقل التحليل النفسي ومعرفته القويمة إلا أن يشير إلى اسمه. لقد قام جاك لاكان بتوضيح ابستمولوجى للتحليل النفسي؛ ومن ثم جاء على غلاف كتابه الأساسي، الذي يحمل عنوان: «الكتابات»، ما يلي:

«لقد كان جاك لاكان المفكر الفرنسي الأكثر تأثيرا بشكل مثير للجدل بعد سارتر من الأربعينيات من هذا القرن. فلقد كان عضوا ضمن كوكبة استثنائية وعبقرية من المثقفين العظام الذين شغلهم العقل الإنساني، والذين ذاع صيتهم في فرنسا في الخمسينيات؛ تلك الكوكبة التي تضم من بين ما تضم: كلود ليفى شتروس، التوسير، برات، فوكو، وآخرون». لقد أخذ لاكان وقتا طويلا حتى ينال الاعتراف العام.

لقد شكل أسلوبه اللغوي المعقد أحد الأسباب وراء هذا التأخير. أما السبب الثاني كان يكمن في كونه لم يكن بالمفكر المنتظم الذي يكشف عن تطور تفكيره من كتاب لآخر. لقد كان لاكان يُعد، في المقام الأول، محللا نفسيا. وقد اهتم بشكل خاص بتدريب المحللين النفسيين. كما كان يعد أيضا محاضرا، حيث استمر لما يقرب من الثلاثين عاما بعقد سيميناره الأسبوعي، الذي يعد بمثابة مصدرا رئيسيا من مصادر تأثيره وشهرته في فرنسا. وبكونه مخلصا في ولائه وتبعيته لفرويد،

فلقد آثر أن يستمع أولا ثم يتكلم بعد ذلك. إن كل كتاباته نشأت كضرب من الكلام الشفهي. ومن ثم لم يكن بالمؤلف التنظيمي. فلم يتبع إقامة الحجة، أو يتناول موضوع ما حتى يفنده. فلقد كان يفضل الالتفاف... وذلك بطرح اليوم سؤالا، ولا يجيب عليه إلا بعد ستة أشهر أو سبع سنوات تالية؛ وربما يحدث أنه يعيد صياغة التساؤل مرة ثانية أو مرات.

وبفضل فكر جاك لاكان قد خطى التحليل النفسي خطوة هائلة إلي الأمام. فلقد قام بتقديم صياغات تطويرية عديدة للتحليل النفسي من خلال خبرته الإكلينيكية، واستطاع أن يفرزها من خلال قراءاته ومناقشاته. لقد أعاد لاكان توجيه التحليل النفسي بعيدا عن رفضه للعقل... فأعاد قراءة فرويد، ليقيم نظرية في العقلية تعنى بإيراد الأدلة وتقف عن الجزئيات وتعتمد البرهان العقلي في ميدان أصبح فيه الغموض شاسعا. ويعد لاكان المحلل النفسي الأول الذي قام بإزالة التمييز بين صورة التحليل النفسي وصورة الفلسفة؛ فلقد كشف عن التداخل المستمر والوظيفي لكل منهما.

وينتمي جاك لاكان، على طول الخط، إلى المفكرين الذين يفكرون تفكيرا عميقا في الأصولية الداخلية الأسباب والنتائج والعلاقات. ومن الممكن تصور علاقة لاكان بـ «فرويد» على غرار علاقة فولتير بـ «ديكارت». فلقد وضع ديكارت اسم الله قاب قوسين، وقام فولتير بإزالة القوسين؛ ولقد وضع فرويد العقل قاب قوسين وقام لاكان بإزالتهما.

لقد أخذ لاكان من فرويد ما يحفزه لتأسيس مؤسسة تعليمية باسمه هو نفسه. ولقد كان هو الوريث لحلم سرده فرويد لصديقه «فليس»: إن لوحة رخامية سوف تسجل يوما نقطة، بينما هو يصنع اكتشافه. على الرخامة يتم نقش: هنا، في ٢٤ يوليو ١٨٩٥م، تم إماطة اللثام عن سر الأحلام عن طريق سيجموند فرويد. «إنه الحلم بالخلود والشهرة الدائمة. وشأن الأب المؤسس، نصب لاكان نصبا تذكاريا لنفسه. إنه لم يستمد إشباعا نرجسيا فقط من شهرته: فلا فرويد ولاكان رغبا، ولو مثقال ذره في ملذات الصغير من السمعة؛ لقد كانت فانتازياتهم أوسع. فلقد حلما الاثنان أن يتم تذكرهما لقرون؛ أن تصبح أسماؤهم لامعة في عصرهم...» إن الثقة الأعظم ما تكون، لحال لاكان، والانتصار الثوري الذى حققه هو أنه نجح في تأسيس وإقامة اسمه.

لقد حلم لاكان بتحليل نفسي متقدم، لديه القدرة على الثورة والعصيان، في تحليل هذا الذي تثورضده متمردا. وتتمثل عبقريته في إفادته بأحدث ما في الفكر وأكثره جدية. وإذا كان لاكان جزءا من الحركة الحديثة بعامة التي تميل إلى التحديث، إلا أنه استطاع أن يعمل بمفرده.لقد استطاع لاكان أن يدفع بسرعة عجلة فكره، ليحتل موقعا طليعيا في جرأة قد تستثير الجدل. ومن ثم لن يكون هناك، في وقتنا الحاضر، من يريد أن يتكلم ولو للحظة عن فلسفة الإنسان، ويتجاهل أو يهمل فكر جاك لاكان.

ومن هنا كانت الضرورة هي محاولة فهم جاك لاكان. ذلك الفهم الذي لا يتأتى إلا مع الفضيلة العلمية، تلك الفضيلة التي تتمثل في الإنصات إلى التاريخ. وبالتالي جاء عنوان الفصل الأول: جاك لاكان، تاريخ حياته. ليتم فيه التعريج في عجالة على جملة الرسائل الأساسية والأفكار والتعبيرات التي قام بطرحها، وذلك بعد أن تخلينا عن أن نقوم بسرد دوره في حركة التحليل النفسي في فرنسا؛ حيث تتجاوز هذه المهمة المقام هنا، وتضعنا في خضم حركة ثقافية شاملة قامت رحاها في فرنسا فيما بعد الحرب العالمية الثانية. ولما كنا، في التعامل مع أعمال جاك لاكان، بصدد التعامل

مع اللغز ومع المشكلة، فإن علينا أن ننوه إلى أن تفسير أفكاره المعقدة والمحيرة ليس بالأمر السهل اليسير.. ففي مقدمته لكتاب «لوميير» (١٩٧٠م) قام لاكان بوصف «الكتابات» بأنها غير ملائمة لأن تكون أطروحة، وخاصة أطروحة علمية؛ فهي في طبيعتها متناقضة.

ومن هنا فإني أحب أن أشير إلى أن أسلوبي يبدو في بعض الأحيان، إن لم يكن كثيرا، وكأني أتكلف ضربا من ضروب الصقل والإجمال، كما يتضمن ضربا من التعقيد والصعوبة. فإن هذا يرجع إلى صعوبة المادة التي يتم التعامل معها. ولقد التمست العون في مجاهداتى أن أحسس أعمال تلاميذه ممن يكونوا قد تعلموا منه بشكل مباشر، حتى أستطيع أن أجنب الوقوع في براثن تفسير الماء بعد الجهد بالماء، مما يصيب الإنسان بالملل ويلقى بالمبتدئ في خضم متاهات لا يعرف سبيلا للخروج منها.

وبعيدا عن مسيرة حياته الأولية وشغفه بحب الكتب وجمع موضوعات عديدة، كانت الانطلاقة في مسيرة حياته مع التدريب الكلينيكي له في الطب النفسي من عام ١٩٢٧م ، حيث تعلم الملاحظة التحليلية النفسية واهتم بالبارانويا والهذاء البارانوى وناقش أعمال فرويد في الفصام واللغة وأعمال يونج وبانزفانجر، ووجه اهتمامه صوب الكتابات الإبداعية الإلهامية لمرضى الهذاء البارانوى، حيث يتم تحديد بنية المرض العقلي على أساس الاضطرابات السيمانطيقية والأسلوبية والنحوية الموجودة في خطاب الذات.

وفى العام ١٩٣١م كان لاكان قد شارك في تخصيص ثلاث عشرة مقالة تتعلق بمجمل المشاكل المتعلقة بعلم النفس الباثولوجى، وأعطى اهتمامه للعمل في ميدان الذهان واللغة. وفى العام ١٩٣٢م أجاز أطروحته للدكتوراه التي تحمل عنوان: «في البارانويا وعلاقاتها بالشخصية»؛ والتي جاءت تعكس علامة واضحة على اتجاه دلالي صوب النظرية التحليلية النفسية، وصوب النهج الدينامي. وفى هذه الأطروحة عكس لاكان تطورا عقليا كبيرا، وتتوج تدريبه الكلينيكي القمة؛ حيث علمه الجنون كما علمته الخبرة التحليلية أن لكل أسلوب جانبه المظلم وأن عليه أن يسعى للكشف عن هذا الجانب المظلم.

وبدأ لاكان يكتشف أعمال فرويد ويتعرف على المكانة الخاصة التي يعزوها فرويد للبارانويا.. وهذا أدى به إلى اكتشاف المذهب الفرويدى وقاده إلى الدخول لخبرة الأريكة ودخل الحياة العلمية بشكل تام. فأصبح متخصصا في البارانويا، أصبح كثير النشاط والمعرفة. فقد كان عليه أن يبدع مروره من الطب النفسي إلى التحليل النفسي ويشق طريقه، حيث كرس نفسه لتناول الأذهنة وانطلق في تناول مشكلاته من حيث انتهى التحليل النفسي.

وتوقف لاكان عند النرجسية والجنسية الثنائية وعقاب الذات وعقدة القضيب والدور الأبوي؛ حيث يقع الجنون كلية على جانب المعنى... وقدم ملاحظته الأولى المحورية في مجال التحليل النفسي ومهد دخوله الحق، عندما ذهب إلى مؤتمر الجمعية الدولية للتحليل النفسي الرابع عشر المنعقد في مدينة مارينباد في عام ١٩٣٦م. وهناك قدم فكرته عن المرحلة المرآوية، حيث كان انشغاله منصبا على تناول النرجسية الأولية والصور الأولى عن الذات، التي تشكلها، وتغترب بها في الآن نفسه، في صورته المرآوية، في الفترة من الشهر السادس حتى الشهر الثامن عشر من العمر. ففي هذه الفترة يكون التوحد مع التوقع لجشطلت بدنيا ونفسيا، ويكون الافتتان والنشاط التهللي للطفل أمام المرآة. مما يربط الطفل، في ضرب من الدينامية الليبيدية، بصورة مرآوية هي لم تزل غامضة؛ إذ

أن هناك ضربا من العجز المولدى الواقعي. ويكون الاغتراب والعبرية والمعرفة البارانوية وضروب الآسر التي تظهر، في موقف نموذجي، النسيج الرمزي الذي فيه يتم التعجيل بالأنا في شكل أولى بدائي، من قبل أن يتم تموضعها في ديالكتيك التوحد مع الآخر، ومن قبل أن تبقى عليها اللغة وتعيد إليها وظيفتها بوصفها ذاتا.

لقد ذهب لاكان إلي مؤتمر مارينباد، حيث كان يعتبر نفسه حاملا لنظرية في الشخصية. ومن ثم كانت المواجهة الأولى له مع الحركة الدولية؛ لقد أراد لاكان أن ينصب نفسه مفكرا أصوليا وهاما، ولا يخضع للأرثوذكسية. وبدأ لاكان يصبح أكثر قربا في تفكيره من الخبرة التحليلية. وقد انشغل، مع طرحه لفكرة المرحلة المرآوية، بثيماتين أساسيتين هما :

١. دور الصورة في تكوين الذات وتطويرها.

٢. الطريقة التي فيها تنشأ الخبرة الاجتماعية وتتطور.

ومن هنا جاءت مشاركته في مشروع الانسيكولوبيديا الفرنسية، المقدر لها أن تكون شاهدا على مكانة الحضارة المعاصرة وتحمل روح العصر التنويري. وفيها كشف لاكان عن مراجعة نظرية عالية التعقيد للنظرية الفرويدية، وعن اتخاذ منهج فرويدى أصلى وعميق وناقد. لقد تكلم عن الأسرة التى يرى أنها الأكثر دلالة، شأنها شأن البنية الاجتماعية المحيطة. ومن هنا كان الإصرار على أهمية مفهوم العقدة بأكثر من مفهوم الغريزة فى تطور الميكانيزمات النفسية، وتكلم عن العقد الثلاث: عقدة الفطام، وعقدة الإقحام، والعقدة الأوديبية.

وبعد انتهاء سنوات الصمت، سنوات الحرب العالمية الثانية، يعاود لاكان النشاط الفكري، ويكشف عن بلاغته. ويقود رحى مناقشات تحت علامة الحاجة إلى بديل: التحليل النفسي في مقابل الطب النفسي. ويقدم مقالته التي تحمل عنوان «العدوانية في التحليل النفسي» (١٩٤٨م)، وذلك بقصد إعطاء التحليل النفسي مكانة العلم.

وتعتبر هذه المقالة مكملة لرؤيته للمرحلة المرآوية، وذلك لأن ثيماتها الأساسية بصدد العدوانية التي تعد بمثابة ضرب من التوتر الملازم للبنية النرجسية التي تتعامل معها فكرة المرحلة المرآوية. وحتى يفسر هذا التوتر التلازمى، قدم لاكان عددا من الثيمات الفرعية التي تطرح تناول مفهوم العدوانية من المنظور العلمي. وكان عليه أن يتناول العدوانية في الخبرة التحليلية، وكان يرى أن التحليل النفسي «فعل يقوم في ضرب من التواصل اللفظي ومن خلاله؛ أي فى ضرب من الاستحواذ الديالكتيكى للمعنى. وأن الذات فقط هي القادرة على تفهم معنى ما من المعاني؛ وأن كل ظاهرة من ظواهر المعنى تتضمن ذاتا. وفى التحليل النفسي تقدم الذات نفسها بوصفها كينونة قادرة على أن تكون مفهومة، وهي في حقيقة الأمر مؤهلة لأن تكون مفهومة».

لقد قام لاكان بربط إشكالية عدم تكامل الإنسان والنزعات التدميرية، العدوانية، مع النرجسية، ومن هنا يمهر القصد العدواني البنية النفسية بخاتمه، ببصمات يمكن الإشارة إليها كصور ذهنية، كإيماجوهات تلتئم في جشطلت بعينه خاص بالعدوان. ويذهب لاكان لمعالجة الفرضية التي مفادها أن « العدوانية إنما هي نزوع ملازم لشكل التوحد الذي نسميه التوحد النرجسي، والذي يحدد البنية الشكلية للأنا عند الإنسان ولسجل الكيانات المميزة لعالمه».

ولما كان لاكان يمتلك القوة والأداة بفضل كتاباته وطروحاته، فلقد حمل على عاتقه مسئولية حماية

مستقبل الطب النفسي الفرنسي واستقلاله وتفرده. وقد انطلق من أجل تحقيق هذا الهدف من إقامة تعليمه تحت شعار «العودة إلى فرويد»، ذلك الشعار الذي أصبح بمثابة نداء حقيقي ونقطة حماس لشحذ الهمم. فلقد تم توجيه هذا الشعار صوب أولئك الذين أساؤا فهمه، من خلال الخلط والتعسف. لقد وضع لاكان أمام نفسه مهمة التحرر من الاشتباك القائم مع المفاهيم، التي أصبحت تعانى الموت من جراء الاستعمال الروتيني واستخراج المعنى الذي تسترده تلك المفاهيم من كل من إعادة ودراسة تاريخها ومن إمعان النظر في أسسها الذاتية.. و«تلك هي وظيفة المعلم الأولى التي ما أن أغفلناها سوف يصبح المعنى غامضا».

لقد كان مشروع لاكان فى البداية هو أن يكامل الأصول الفينومينولوجية للفرويدية في ضرب من العلم السيكولوجي الجديد والأوسع مدى.. لقد أراد لاكان أن يجعل من التحليل النفسي العلم الذي حلم به، العلم القادر على إلقاء الضوء على أسس العلوم الأخرى وأيضا على النفس الإنسانية. ومن أجل تحقيق هذا الهدف استثار وأبدع عقلية المنهج الفرويدى: التمهيد لنظام من التحتيمات في الوجود الإنساني في حقل المعنى لهذا الذي نسميه المنطق.

إن اكتشاف فرويد يكمن في إعادة اكتشاف المنطق في أرضه الحق. لقد استخدم فرويد حتى يتسنى أن يجيز بحثه من أجل صياغة سوف تشكل في الأخير التحليل النفسي كعلم، كعلم سوف تكون نهايته في الطلب عن رمز رياضي للتحليل النفسي، مما يجعل التحليل النفسي بكليته قابلا للنقل.

ومن أجل هذا المنظور تأرجح لاكان بين ضرب من النقد أو ضرب من الصياغة النسبية للنصوص الفرويدية وضرب من الإخلاص غير المشروط. ويقول لاكان: «إنه لم يكن القصد لديه هو محاولة تغطية المجال بكليتيه.. وإنما كان الهدف هو إعادة تفسير نصوص فرويد وليس أكثر». ومن وجهة نظره لم يكن التفسير هو بالتنقيح لفكر فرويد، وإنما بالعودة لروح نص فرويد الحقيقية - نهضة تفسيرية جديدة.

ولأنه أخذ دور المنظم الأعظم ما يكون أصولية والأكثر ما يكون إنتاجا ونشاطا، تم وضعه في مأزق ومواجهة بينه وبين أبناء جيله.. فهو ليس بمؤسس لمدرسة ولا بمبدع لها ولا هو بالقائد؛ انه في الغالب الأعظم منظر ألمعي في عيونهم. فاشتد أوار المواجهة، حيث أصبحت جميع ممارساته موضوع جدال ونقاش. فأدى ذلك إلى تحالفات وانقسامات داخل المجتمع التحليلي الفرنسي. وكان الانقسام الأول حيث انسحب ومعه لاجاش وآخرون ليقوموا بتأسيس جمعية تحليلية جديدة تحمل اسم الجمعية الفرنسية في التحليل النفسي Société Française de Psychoanalyse SFP في العام ١٩٥٣م.

وهنا بدأ لاكان يشرع في طموح نظرية جديدة في الذات، استهلها بمحاضرة عام ١٩٥٣م تحمل عنوان: «المتخيل والرمزي والواقعي». وفى هذا النص أراد لاكان أن يطرح ضربا من التمييز بين ثلاثة سجلات للواقع الإنساني، وكذلك أراد أن يقدم وجهة نظره حول الأنموذج الطبوغرافى في الذات الإنسانية. لقد كان هذا النص بمثابة ضرب من الإظهار بأن النظريات الأولى لـ كلود ليفى - شتروس قد آتت ثمارها في لاكان. فالتحليل الأنثروبولوجى للبنيانات الأولية للقرابة، الذي يمكن اعتباره المؤسسة الأساسية لأي مجتمع، قد قاد لاكان للتأكيد على أولوية الثقافة، كعنصر ثالث بين الطبيعة والمجتمع. لقد سمح اكتشاف لاكان لأبحاث «شتروس» أن يعطى شكلا لما كان يتطلع

إليه منذ مقالة الأسرة (١٩٣٨م) أي ضرب من إعادة الصياغة للعقدة الأوديبية، بوصفها ضربا من الدخول، بفضل الصورة الأبوية، في كون وعالم القانون، وفى المشاركة في القيم الاجتماعية الثقافية، وفى تعرف الذات والاعتراف بها كذات مكتملة.

لقد شرع لاكان يصيغ مفاهيمه على النحو الذي يشبه نقش الصائغ. وحاول أن يصبو إلى هدفه على نحو لا تتلعثم فيه الكلمات. فمن خلال دعوته بالعودة إلى فرويد وصكه للمفاهيم الثلاثة: المتخيل والرمزي والواقعي، وضع لاكان قدميه وبحق في طرح نظرية جديدة في التحليل النفسي.

وذهب لاكان إلى روما وقد خط بقلمه أسلوبا تذكاريا بارزا؛ وقدم «خطاب روما» (١٩٥٣م) الذي يحمل عنوان: «وظيفة ومجال الكلام واللغة...». وفى هذا النص حدد الهيجاء الأولى لبرنامجه: الكلام والذات واللغة. لقد قام لاكان بتطبيق بنيانات اللغة مع هذا الجزء من القوانين الاجتماعية التي تنظم الروابط الزواجية وصلات القرابة في الميدان الحق الذي يموقع فيه فرويد اللاشعور. إن مع مواجهة لاكان بالمبادئ النظرية لـ «ستروش»، بدأ يظهر مصطلح اللاشعور فى عمل لاكان. فمثل هذا المفهوم الأساسى فى التحليل النفسى يمكن تناوله فحسب، بالنسبة له، من خلال إعادة قراءة النصوص الفرويدية فى ضوء مفاهيم جديدة مقتبسة من الانثروبولوجيا البنيوية وفى الوقت نفسه، من فلسفة «هايدجر» فى اللغة.

إن مع خطاب روما بدأت نغمة لاكان تتميز. فبدأ يصر على يقينية اللغة في تصوره للمشروع الفرويدى. ومما لا شك فيه أن تطور هذا الانشغال عند لاكان جاء تدريجيا: حيث كان الأثر العميق لمقالات شتروس على تفكير لاكان والتى ساعدته لأن يفصل تصوره الخاص حول العلاقة الارتباطية بين اللاشعور الفرويدى وقوانين اللغة. لقد أخذ لاكان على عاتقه مسئولية أن يميط اللثام عن أن المفاهيم التي يقوم عليها التكنيك التحليلي عند فرويد لا تضطلع بمعناها الحق إلا عندما يتم توجيهها في حقل اللغة وعندما تتم انتظاميتها في علاقة بوظيفة الكلام.

كما أن نص خطاب روما جاء يحمل فى طياته أيضا منحنى آخر بجانب منحى اللاشعور واللغة ألا وهو فكرة الاسم - بتاع - أل - أب، بوصفه المساند للوظيفة الرمزية التي حددت، منذ فجر التاريخ، شخصه ووحدتها مع صورة القانون وطابقته. إن هذه الصورة تنطوي على آثار لاشعورية لا تمت بصلة مع الأب المتخيل أو الأب الواقعي. كما أنه يمكننا القول إن «الاسم - بتاع - أل - أب» إنما هو الذي يبنى اللاشعور في جانب اللغة، كاسم وكحامل لكلام ممنوع وإن كان محررا معتوقا. والحق أن الاسم - بتاع - أل - أب إنما هو الضامن على استقلالية الذات بكل حقوقها.

لقد قدم لاكان خطاب روما في منظور يجد فيه التحليل النفسي تحالفه مع الفلسفة ومع اللغة ومع الانثروبولوجيا البنيوية. وبدأ لاكان يحفُر ويُنقب في نصوص فرويد من منظور نسق اللغة؛ وفتح باب التحليل النفسي لعالم جديد من البحث اللغوي.

ومنذ ذلك الحين أصبحت المسألة في عيون لاكان هي تأسيس نزوع مذهبي يقوم على الأرثوذكسية الفرويدية الجديدة: ضرب من القراءة التي لا تُمسخ، ضرب من العلم الحقيقي في الإنسان وليس بالتوجيه التقني ضيق الأفق. لقد أراد لاكان أن يكون المتحدث باسم ضرب من إعادة القراءة لفرويد، قراءة تقوم على كل من الفلسفة وعلم اللغويات والأنثروبولوجيا.

وكانت رحلة المعرفة، رحلة العلم والتعليم، ورحلة الكشف عن الملامح الأساسية التي تحمل في طياتها إلماحا لمدرسة جديدة في التحليل النفسي. ففتح الباب على مصراعيه وتحرك ليقدم سيميناراته. لقد جاءت الساعة أمام لاكان ليتكلم عن الكلام، عن أداة المحلل النفسي، عن الوسيط الوحيد، وعن الوسيلة الحق للتحليل النفسي. لقد كان لاكان ليس فحسب سيد الحقيقة، بل وأيضا كاتب عمومي، ناسخ، رجل دين، شاهد؛ بمعنى أنه كان كل هذا حتى يستنطق كلمات المريض، حيث كانت له من الأفكار التي تميزه عن التصورات الأخرى للتحليل النفسي، والتي لها تأثيرها على نظرية التحليل النفسي وعلى ممارسته.

ولقد قام لاكان، كي ما يتم إنقاذ التحليل النفسي من تلك الوضعية التي تحاصره داخل صيغ قهرية، بعدم إخضاعه إلى نظرية سيكولوجية أو نظرية فلسفية يمكن أن تؤدى إلى تشويهه. فلقد استطاع أن يعيد النظر في التحليل النفسي من خلال حركة دؤوبة: ذهابا وإيابا بين النصوص الأساسية في التحليل النفسي، ومن خلال إنصاته كمحلل نفسي، وبفضل الإسهام الهائل للعلوم الإنسانية. لقد استفاد لاكان من الأنثروبولوجيا الثقافية وعلم النفس والفلسفة؛ كما استعان بعلوم اللغة، حيث تأثر تأثيرا واضحا باللغويات واستطاع أن يقدم صياغة تطويرية، على أساس بالغ الثراء، من معارف متباينة مستمدة من فروع معرفية عديدة. كما أنه لعب دورا في تطوير التحليل النفسي وإكمال مسيرة فرويد.

وكما قال جاك الآن ميللر، إن تعليم لاكان، ينقسم إلى الفترات التالية:

- من العام ١٩٥٣م ١٩٦٣م، حيث كان فيها يتخذ صورة مناظره تذهب إلى نصوص فرويد، بحيث يتم تخصيص كل سنة لمفهوم أو لمؤلَف أو مؤلَفين لفرويد. وخلال هذه المدة أكد لاكان على فكرة بنية اللغة وقام بالتحقق من صلاحيتها وهدفها على مدى ما خلفته تجربة نصف قرن من التحليل. كما أقام مقولة الرمزي من حيث إنها مقولة أساسية. وأدخل لغة جبرية جديدة. وكل هذا يشكل ما يسميه لاكان «اروغانون» يتدرج وفق سلم تمهيدي لا زمني، فيه درجات حتى يتمكن المستمعون من التأكد من متانة الدرج السابق.

فلقد اتسمت هذه الفترة بضرب من الاتساع الحقيقي في التفكير اللاكاني، ويبدو أن الاستقبال الإيجابي لتعبير «العودة إلى فرويد» ولتقرير لاكان وخطابه في روما قد أطلقا العنان لرغبته في إعادة صياغة كل المفاهيم التحليلية. فنقده للأدبيات التحليلية والممارسة لم يستثنى أحدا غالبا. لقد عاد إلى فرويد. غير أن هذه العودة هي ضرب من إعادة القراءة المرتبطة بالفلسفة الحديثة المعاصرة واللغويات والاثنولوجى والسبرنطيقا والطبولوجيا.

لقد قام لاكان بفتح باب سيمیناره للجموع وللعامة، مما ساعد على اتساع نطاق مستمعيه ليمتد إلى دوائر أوسع. ومن أجل أن يؤسس النظرية اللاكانية، قدم على مدار عشر سنوات في Sainte - Anne عشر سيميناريات دارت حول صياغة الأفكار الأساسية للتكنيك التحليلي النفسي، للمفاهيم الجوهرية للتحليل النفسي، وحتى إلى أخلاقيات التحليل النفسي. لقد حاول أن يصنع موقفه في التحليل النفسي. وحوله التف حواريون من أطراف فكرية مختلفة إلى الحد الذي جعل التطورات الإكلينيكية والطروحات النظرية هي الشغل الشاغل للحركة الدولية.

لم يكن لاكان مجرد عضو ألمعي، وإنما كان منظرا حقيقيا. فمن خلال موهبته الخاصة ومن خلال

حيويته ونشاطه ومن خلال قدرته على الإقناع اصبح لاكان على درجة أولية من الأهمية وأصبح يحمل ثقلا عظيما على الدارسين. وكان هناك من يرونه خطرا لأنه يقوم بالتعليق على أعمال فرويد بمفاهيم صارمة تُستخدم لنصوص مفكرين يحسبون حساب كل كلمة. لقد كان لديه قدر كبير من الشخصية. وهذا قد جعله يدخل في مواجهات عديدة ومناقشات حادة ليست فحسب مع الرابطة الدولية، وإنما مع من أرادوا أن ينتسبوا للرابطة من أعضاء جمعيته. وكانت الدراما التراجيدية الثانية، وأصبح موقف لاكان أكثر خطورة مع عام ١٩٦٢م؛ وذلك لرفضه التطبيع الذي يتعارض مع مذهبه وممارسته. وظهرت الرغبة في الاستبعاد له وتهميش موقفه، حيث كان الاعتراض الكبير يتمثل في الوضع الخاص الذي شغله، بجانب المدى الكلى لمنهجه في التعليم، إضافة إلى قوته في الشخصية.. لقد كان لاكان ، بأسلوبه الأكثر أناقة ، دوما مصدر إزعاج.

وفى العام ١٩٦٣م تم وضعه أمام خيارات ثلاثة: إما أن يغير من ممارسته، وإما أن يقبل إقصاءه، وإما أن يصبح منشقا. فإذا قبل الخيار الأول عليه أن يتجرأ بالخضوع ويتظاهر بنبذ نظريته؛ وإذا قبل الخيار الثاني، عليه أن يوقع على شهادة وفاته بالتسليم بعدم ملاءمته؛ أما الخيار الثالث هو الذي يتفق وشخصيته. فتاريخ لاكان وأصولية قراءته لفرويد وتأكيده على أرثوذكسيته ورفضه لكل انحراف .... كلها أتاحت له أن يكون منشقا مرة ثانية ... شريطة أن يعيد اختراع الاختراق الفرويد... ولا عداه. فقام بالانشقاق واختراع جمعية جديدة تحمل اسم المدرسة الفرويدية بباريس École Freudienne de Paris EFP في عام ١٩٦٤م. تلك الجمعية التي أصبحت معروفة باسم اللاكانية.

وفى الفترة من ١٩٦٤م - ١٩٧٤م كانت الوجهات الجديدة للنظرية اللاكانية. فتدعيما للانقسام الثاني وانتقال لاكان إلى المدرسة العليا للأساتذة École Normale Supérieure ENS حلت عشر سنوات ستتبوأ فيها مصطلحاته مركز الصدارة مثل: «الذات المتصدعة» و«الموضوع الصغير» و«الآخر الكبير». وقد كانت المشكلات التي يطرحها الارتباط بين هذه المفاهيم تندرج ضمن الإشكالية السابقة أو تحل محلها.

لقد التحق لاكان بعد الانقسام الثاني بمؤسسة علمية هي المدرسة العليا للأساتذة E N S التي تعد واحدة من أعظم المؤسسات العلمية وقارا في فرنسا ، والمعروفة بكونها الأرض الولادة المثمرة بمهن عظيمة والتي تعد واحدة من أعظم المؤسسات المنتقاة في فرنسا للتعليم والثقافة العليا. وبهذا يقول لاكان: «لقد دخلت التحليل النفسي عندما كان عمري الواحد والخمسين عاما وقمت بتغيير الموقع والحضور عندما كان عمري الثلاثة والستين عاما».

لقد أصبحت هناك سمة حسنة حوله. ومن حوله التف الكثير من الدارسين في مجالات معرفية مختلفة. وبدأ السيمينار الحادي عشر: «أربعة مفاهيم أساسية في التحليل النفسي»، الذي فيه شرح موقفه من المؤسسة التحليلية النفسية؛ هذه الكنيسة الفعلية التي قامت بحرمانه من العفو الكنائسي. وقارن نفسه ب سبنيوزا، وعرض مشروعه للتعليم، مشروعه لأسس التحليل النفسي. لقد أعلن لاكان في هذا السيمينار عن أهليته وكفئه وأحقيته بالكلام في أساسيات التحليل النفسي. وبالتالي شكل هذا السيمينار بداية لمرحلة جديدة وصعبة من تعلم لاكان. فمع اتساع الحضور ليشمل فلاسفة ونقادا ومؤرخين، بجانب المحللين النفسيين، بدأ لاكان يغير من تركيزه في تعليمه مبتعدا عن حرفية نصوص فرويد. وبدأت سيميناراته تلبس لباس النصوص الفلسفية والتناقضات المنطقية والنظريات

الرياضية. وكذلك بدأ يظهر ضرب من التغيير في الأسلوب على البرهنة وإقامة الحجة.

لقد كان لاكان يحضر كل لقاء وكل مؤتمر وكل ورشة عمل؛ حيث يدلى بدلوه ويشارك باستمرار في المناقشات ويضفي على الجو جوا أكاديميا في التفكير؛ مما أصبح في النهاية مصدرا لإثراء الجو المحيط بالمدرسة بحضور رواد من جميع التخصصات المختلفة. وأخذ فرصة لإمكانية ممارسة التحليل النفسي. وبدأ لاكان يتكلم عن نفسه بوصفه المالك لأفكاره. وبدأ يستشعر نفسه رمزا لرسالة أو مهمة. واعتقد أن أفكاره لم تنتم إلا إليه وحده؛ وبدأ يقود شعار اللاكانية التي تناولت. بجانب التحليل النفسي. اللغويات والمنطق والاثنولوجيا والرياضيات. لقد بدأ يطرح صياغات عالية المنطق. لقد كان لاكان مغرما دوما ومفتونا بالألعاب. وبدأ اللعب بالكلمات والأسهم والرسوم البيانية ونقط الازدحام والعقد حتى يفعل شيئا ما يمكن فهمه.

لقد قام لاكان بتحويل نفسه وأبدع وخلق فنا بلاغيا بيانيا جديدا عن استنباطاته. وأتقن نمط وأسلوب تعليمه. لقد بدأ لاكان. الطبيب النفسي. يتكلم عن اختبار Hobson للعبادة. وبدأ يستفيد من أعمال شتروس والأدوات أو الوسائل التصويرية وقام بتبني الأسلوب البنيوي بإخلاص من القلب. آنذاك كانت البنيوية قد بدأت فقط. وآنذاك تكتسح فرنسا وأصبح لاكان جنبا إلى جنب مع فوكو وبرات.

وفى العام ١٩٦٦م سافر لاكان إلى الولايات المتحدة الأمريكية. لا يمثل التحليل النفسي وإنما ليمثل الفكر البنيوي. لقد أصبح لاكان واحدا من ألمع النجوم المعترف بهم على المسرح البنيوي بباريس. وباحتلاله موقعه هذا خلف أثرا في نفوس المحللين النفسيين الأصليين وأظهر انشقاقا بين النظرية الممارسة. وبدأت سلسلة من الأزمات الجادة بصدد المؤسسة التعليمية لمدرسته. وصاحب ذلك نشر كتابه (الكتابات) ١٩٦٦م الذي أراد من خلاله أن يثبت مذهبه ويقدمه للعامة..

لقد جاء العام ١٩٦٧م ليشكل عاما أساسيا لجاك لاكان من مناح عديدة: لقد أصبح هو المنتصر في عراك صعب من أجل طلب الاعتراف الذي جاهد من أجله؛ لقد أصبح لاكان بمثابة «فرويد فرنسا». حيث أصبح التحليل النفسي بمثابة مؤسسة علمية مشتركة.

وفى هذا العام صرح لاكان قائلا: «إن العلم الذي يبحث في اللاشعور هو بالتأكيد علم اللغويات؛ فاللاشعور يبنى بناء لغة ويظهر في ظواهر لغة... وأن ما تكتشفه تجربة التحليل النفسي هي بنية اللغة بكاملها».

وبعد اندلاع أحداث مايو ١٩٦٨م جاء دور الحركة التحليلية لتلعب دورا في الثقافة الجديدة وكانت النظريات البنيوية عند لاكان تؤكد إمكانية اكتشاف قوانين كونية بصدد الإنسان والمجتمع من خلال خبرتنا لأنفسنا. وأخذ لاكان موقفا وقفه من أزمة الجامعة. حيث بدأت طروحات جديدة نتيجة دخول جيل جديد في مسرح المناقشات .. وهذا أدى إلى الانشقاق الثالث في الحركة التحليلية؛ وتحرك لاكان من E N S ليؤسس قسما للتحليل النفسي في باريس VIII. في جامعة السربون. حيث هناك يقوم بصياغة مذهبه النهائي أمام حضور جديد.

ومع العام ١٩٧٤م تناول لاكان الأسس التي يقوم عليها خطابه. وخصوصا التقسيم الثلاثي: «الواقعي. الرمزي. والمتخيل». وأخذ يخوض في

صياغة نوع من النظرية ألما ورائية ذات بعد دلالي محض حيث تذبل المعاني المألوفة للتحليل النفسي في حين أن العقدة البرومانية تقوم بوظيفة محورية. وفى الأخير أصبح لاكان يتحدث عن تجربته بلغة مغرقة في البساطة وبعبارات جازمة. وظل هكذا في نضاله من أجل العلم والمعرفة، إلى أن توفى في العاشر من سبتمبر سنة ١٩٨١م؛ ليرحل تاركا وراءه مكانة مرموقة، حيث استطاع في الأخير أن يقرن اسمه باسم فرويد. فرحيله، كما يقول «عدنان حب الله» لم يغيبه ولن يغيبه عن المسرح الفكري الجدلي للعديد من السنوات القادمة.